إحتفالية عيد الغديرِ في مدينة النجف

كرنفال للفرح يتجدد كل عام

تحقيق وتصوير
وليد عبد الأمير علوان

لعل ما يميز الدين الإسلامي عن غيره من الأديان، هو كثرة الاحتفالات التي يقيمها أبناؤه، والمناسبات التي يحتفون بها، والتي قد تختلف، تبعا لاختلاف المذاهب، والقوميات، والأعراق. وربما السبب الرئيسي في ذلك، هو وفاء المسلمين لتاريخهم وتراثهم الديني، وتوزع مراقد أهل بيت النبي (صلى الله عليه وآله) والأئمة والأولياء والصالحين (رضي الله عنهم أجمعين)، في بلدان المسلمين المختلفة، بحيث صارت هذه المراقد رموزا خالدة، وعناوين للمناطق، التي تتواجد فيها. وإن حرص المسلمين على تتبع سيرة نبيهم وأئمتهم وأوليائهم، والاحتفال بذكراهم، هي التي أوجدت لديهم هذا الكم الهائل من الثراء الروحي، بحيث لا يخلو شهر من أشهر السنة، دون مرور مناسبة دينية أو تاريخية، سواء كانت مفرحة أو محزنة.

ضريح الإمام علي (ع) Imam Ali's Mausoleum

زينة في الصحن بالمناسبة The shrine's courtyard decorated for the occasion

من المناسبات المهمة، التي يحتفل بها المسلمون في العراق، خصوصا، هي مناسبة (عيد الغدير)، أو (يوم الغدير)، أو (بيعة الغدير)، والتي تبلغ ذروتها في مدينة النجف الأشرف، حيث تتعطل الدوائر الرسمية، وتغلق المحلات التجارية أبوابها، ويتبادل أهالي المدينة الزيارات لتهنئة بعضهم البعض بهذه المناسبة، والتي تصادف يوم الثامن عشر من شهر ذي الحجة، حسب التقويم الهجري.

قصة المناسبة

ذكرت بعض كتب السير والتراجم والحديث أنه في السنة العاشرة من الهجرة دعا الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله) الناس إلى الحج وأن يحج الجميع إن استطاعوا. وسميت هذه السفرة بـ (حجة الوداع)، حيث خرجت القافلة النبوية إلى الحج، وأدى المسلمون مناسكهم بتعليم مباشر من النبي (صلى الله عليه وآله). وبعد الإنتهاء من هذه المناسك أمر (ص) بلال الحبشي (رض)، أن ينادي في الناس (لا يبقى غدا أحد إلا خرج إلى غدير خم)، وهي منطقة افتراق طرق العراق ـ مصر ـ الشام ـ اليمن. وكان ذلك يوم الخميس الخامس عشر من شهر ذي

الحجة، حيث تحركت القافلة، التي كانت تضم حوالي 120 ألفاً من المسلمين نحو الغدير، والذي وصلته، قبل ظهر يوم الاثنين، الثامن عشر من ذي الحجة، في يوم شديد القيظ. عندها أعطى النبي (ص) أمره للمسلمين بالتوقف، فتوقفت القافلة في منطقة الغدير، وبأمر من رسول الله (ص) قام المقداد وسلمان وأبو ذر وعمار (رضي الله عنهم) بتهيئة مكان لإقامة منبر، جعلوا قاعدته من الأحجار، حتى صار بارتفاع يمكن الجميع من مشاهدة النبي (ص)، وسماع صوته. بعد إقامة الصلاة ظهرا، رقى النبي (ص) المنبر، ووقف على أعلى مرقاة منه، ثم دعا الإمام علي بن أبي طالب (ع) وأمره أن يصعد المنبر، ويقف إلى يمينه، ففعل ذلك. عندها وضع النبي (ص)، يده على كتفه، حيث ألقى خطبة تاريخية، هي آخر خطبة له، والتي استمرت زهاء الساعة، لأنها كانت شاملة ومفصلة، تضمنت عرضا لجميع ما يخص المسلمين في دنياهم وآخرتهم. بعد إتمامه الخطبة، قام برفع يد الإمام علي بن أبي طالب (ع) قائلا (من كنت مولاه، فهذا علي مولاه، اللهم والي من والاه، وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من أبغضه) ورددها ثلاث مرات.

قبل أن يتفرق الجمع هبط جبريل الأمين بالآية الكريمة (اليَومَ أكمَلتُ لَكُم دِينَكُم وأتمَمتُ عَلَيكُم نِعمَتي ورَضيتُ لكُم الإسلامَ ديناً)، عندها تقدّم كبار الصحابة، لتهنئة الإمام علي وأولهم أبو بكر وعمر (رض) وكل يقول " بخ بخ لك يا إبن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة".

الاحتفال بالمناسبة في مدينة صاحب المناسبة

نظرا لوقوع ضريح صاحب الذكرى، الإمام علي بن أبي طالب (ع) في مدينة النجف الأشرف، فإن جموع الزائرين تتجه نحو هذه المدينة، لزيارة الضريح للتهنئة بهذه المناسبة، وللتبرك بزيارة صاحب الضريح، حيث يأتي الزوار من المناطق القريبة من مدينة النجف، سيرا على الإقدام، في حين تأتي البقية بحافلات ووسائط النقل الأخرى.

أما أهالي المدينة، والذين يعتبرون هذا اليوم، هو يوم المدينة وعيدها الخاص، وتقديم الخدمة للقادمين بالتهنئة، هو شرف لهم ما بعده شرف، فإنهم يتسابقون، وخصوصا الميسورين منهم، بل وحتى ذوي الدخل المحدود، في بذل أقصى ما يمكن بذله لتوفير ظروف الراحة للزائرين من مأكل ومشرب ومنام، بل وحتى تهيئة وسائل علاج بسيطة، لتمكينهم من تأدية مراسيم الزيارة بكل يسر، حيث تكون موائد الطعام منصوبة وموزعة على أحياء المدينة القديمة وحواريها، والسرادق في كل حدب وصوب، والإحتفالات في كل مكان، والأطعمة والمشروبات توزع على قارعات الطرق.

تتوزع المنضدات، التي تزين بالشموع والمصابيح ونبات (الياس) في جميع مناطق المدينة، والتي تكون مظاهر الزينة واضحة على جميع أبنيتها وأسواقها، في حين تفتح البيوت أبوابها لاستقبال الزائرين وتهيئة وتقديم كافة وسائل الراحة المتاحة.

وتتم إنارة كل المصابيح الموجودة في الضريح المقدس، وفي كافة جوانبه، بحيث يكون متوهجا خصوصا في الليل من كل زاوية من زوايا المدينة القديمة، كما يتم ضبط حركة الزوار من خلال تخصيص أبواب للدخول فقط وأخرى للخروج، وذلك لتمكينهم من التحرك بانسيابية، تجنبا للإزدحام وما قد يولده من مشاكل وذلك لكثرة عددهم.

يقوم كبار رجال الدين، والذين يسمون بـ(مراجع الدين) لدى المسلمين الشيعة، بفتح مكاتبهم منذ الصباح الباكر، وطيلة هذا اليوم،

معرض فني بالمناسبة

Art exhibition for the occasion

الزوار يؤدون المراسيم الخاصة بالزيارة

Visitors follow the ceremony of this occasion

لاستقبال المهنئين الذين يفدون من معظم محافظات العراق ومن خارجه، خصوصاً البلدان المجاورة. كذلك يتبادل رجال الدين الآخرين التهنئة بينهم، واستقبال الزوار للتهنئة بهذه المناسبة.

وتزدحم أسواق المدينة بالباعة المتجولين، وأولئك الذين يعرضون منتجاتهم على قارعة الطريق، والتي تسمى في العراق بـ(البسطيات). فهذه المناسبة هي الموسم المفضل لتسويق معروضاتهم، حيث يتبارون في عرض وبيع ما لديهم من المواد ذات الطابع الديني، عادة ومنها (المسبحات)، حيث يحتل سوق النجف منزلة رفيعة في تسويق هذه المادة وكذلك (التربة الحسينية)، والأعلام والرايات والملابس الخاصة بالمناسبات الدينية، وخصوصا أيام عاشوراء، وصور المراقد الدينية، وكبار رجال الدين، سواء الأحياء منهم أو الأموات.

القيمة النجفية

لعل أكثر ما تشتهر به هذه المدينة، هو تميز أهلها بإعداد وجبة غذاء تسمى بـ(القيمة)، وهذه عبارة عن نوع من المرق يقدم عادة مع الرز أو بدونه. والمكونات الأساسية لـ(القيمة) هي اللحم، ويفضل عادة لحم الغنم، مع الحمص، حيث يتم تنقيع الحمص بالماء بعد تنظيفه لمدة 24 ساعة ثم يوضع عادة في قدر كبير، سوية مع اللحم، وعلى نار هادئة، وقودها الخشب الذي يتم تهيئته وتقطيعه قبل فترة مناسبة، مع استخدام آلة خشبية أو معدنية لتحريك هذا المزيج. وتستمر عملية التحريك حتى يذوب الحمص تماما، ويتجانس مع اللحم، حتى يبدو كأنه قطعة واحدة، وعادة ما تضاف بعض التوابل الى هذا المزيج لإعطائه نكهته الخاصة، وهي مخصصة لهذا النو ع من المرق.

إن ما يحرص أهالي هذه المدينة، على القيام به في هذه المناسبة هو تقديم هذه الوجبة للزوار، سواء من خلال توزيعه في الشوارع، بواسطة أوعية بلاستيكية صغيرة، أو قدور صغيرة يجلبها الزوار، ويحرص هؤلاء بدورهم أيضا على تناول هذه الوجبة، حتى تبدو لبعضهم كأنها من مكمّلات مراسيم الزيارة، بل أن بعضا منهم يحمل هذه الأوعية البلاستيكية الى أهله من باب التبرّك.

لقد حالفنا الحظ في تناول هذه الوجبة الشهية في المطعم المخصص للعاملين، في خدمة ضريح الإمام علي (ع)، والبالغ عددهم أكثر من 1200 منتسب، فتناولنا هذه الوجبة كضيوف، رفقة أحد منتسبي مكتبة العتبة العلوية والذي حرص على أن يطلب لنا صحنين منها، ولولا الحياء لطلبنا وجبة ثالثة، لان مذاقها لا يقاوم، خصوصا وإنها تعد في هذا المكان تحديدا، من قبل طهاة محترفين يحرصون على تقديم أفضل ما لديهم، وكثيرا ما يتباهى من يقوم بذلك بأنه الأفضل وبشهادة من يتناول الوجبة التي يقوم بإعدادها.

إن أصحاب محلات بيع أشهر حلويات المدينة، والتي يختص بصناعتها حلوانيو هذه المنطقة، والتي تسمى بـ(الدهين)، وهو عبارة عن مزيج من

باب من أبواب الضريح

One of the doors of the shrine

جانب مخصص للرجال وآخر للنساء

Men and women separated

إندفاع الزوار إلى الضريح

A surge of the crowd

زينة بالمناسبة

Festive decoration

منظر فوقي للصحن

Top view of the shrine's courtyard

الدقيق، ومبروش جوز الهند، والسكر، والدهن الحيواني، والتي توضع عادة في صواني كبيرة الحجم بعد أن يتم إخراجها من الأفران المخصصة لذلك، سواء الحجرية أو التي تعمل على الغاز السائل، وتقدم عادة وهي حارة، إن هؤلاء قد يعجزون، عن تلبية طلبات الزوار، حيث يتزاحمون على تلك المحلات، والتي تتوزع معظمها في (السوق الكبير وشارع الرسول)، لغرض شرائها وحملها إلى الأهل والأصدقاء كهدايا لمذاقها الطيب. ولعل شهرتها ذهبت أبعد من العراقيين، حيث أنه عندما انسحبت القوات الإسبانية، التي كانت تتمركز في المدينة قبل عامين، صرح قائدها أنه لن ينسى ما حيا أبدا طعم الدهين!

وإذا ما فشل زائر المدينة، في الحصول على الدهين، فإنه سوف يجد بغيته في (الطرشي) حيث تشتهر هذه المدينة، بصناعة أفخر أنواع المخللات، والخل. والسر في ذلك يعود إلى نوعية الأخير المستخدم في عملها، حيث يكون مصنوعا عادة إما من التمر أو التفاح أو مستخلص التمر والمسمى بـ(الدبس) والذي يخلط أحيانا مع حب الرمان بحيث يعطي مذاق (حامض حلو)، حيث يفضل بعض الزوار المذاق الحامض للطرشي، في حين يفضل الآخرون المذاق الحلو. وعادة ما يكون الخل معتقا ولفترة أكثر من سنة، ولهذا فغالبا ما يردد الباعة، المثل الذي يقول (ثلاثة أحسنها العتيق: الخل، والحمّام، والصديق).

كذلك فإن سوق الكتب، يشهد رواجا خلال هذه المناسبة، والتي تتركز في منطقة (سوق الحويش)، الذي لا يبعد عن ضريح الإمام علي (ع) سوى عشرات الأقدام، وهو سوق تراثي تحوّل إلى سوق للكتب، بسبب قربه من ضريح الإمام، حيث يزدحم بالمشترين، خصوصا أولئك الذين يفدون إليه، للحصول على الكتب الدينية، وكتب الأدعية والزيارات. أما أصحاب البسطيات فهم يتوزعون أيضا على جانبي هذا السوق التراثي الضيق، لعرض كتبهم، والتي عادة ما تكون جميعها ذات سعر واحد لسهولة تصريفها وعادة ما يكون السعر هو 1000 دينار عراقي أي ما يعادل 80 سنتاً.

أما المؤسسات الثقافية وهي كثيرة في هذه المدينة، التي اختيرت من قبل منظمة المؤتمر الإسلامي، لتكون عاصمة للثقافة الإسلامية في العام 2012، فتتبارى في إقامة الفعاليات الثقافية، وذلك من خلال إقامة الاحتفالات ومهرجانات الشعر ومعارض الكتب ومعارض فنية تتضمن لوحات تعبر عن المناسبة. وقد تضمنت النشاطات خلال هذه الزيارة إقامة معرض خاص بتراث الإمام الحسين (ع) من صور وخرائط ومجسمات تعبّر عن معركة كربلاء، وجميع ما كتب من قبل الكتّاب الأجانب والعرب عن الإمام الحسين وثورته.

إن الاحتفالات التي استمرت ثلاثة أيام في هذه المدينة، والتي دخلها أكثر من ثلاثة ملايين زائر، تركّزت في المدينة القديمة، وعلى مقربة من ضريح الإمام علي (ع) حيث يكون الازدحام على أشده عند بوابات الدخول والخروج للضريح، وعددها خمس بوابات، حيث يتوافد الزوار للوصول إلى الضريح المقدس سعيا لتأدية صلاة الزيارة وقراءة الدعاء الخاص بالمناسبة. إلا أن منهم من لا يتمكن من ذلك، بسبب شدة الزحام لذلك يكتفي بتأدية مراسيم الزيارة، وقراءة الدعاء الخاص بها والمسمى بدعاء (زيارة الغدير) داخل الصحن. بل إن بعضهم لا يتمكن من الوصول إلى داخل الصحن، لذلك يؤدي المراسيم المطلوبة خارج أسوار الضريح وفي المناطق المحيطة بالضريح.

يكون دخول بعض الزوار، على شكل مجموعات صغيرة، تردد الأشعار والأهازيج الشعبية التي تمجد هذه المناسبة، ويتخلل ذلك تصفيق منتظم من قبلهم، في حين أن البقية يكتفون بالتكبير والتهليل وذكر النبي (صلى الله عليه وآله)، في حين تسمع زغاريد النسوة، من كل حدب وصوب فرحا بهذه المناسبة السعيدة.

بعد الانتهاء من تأدية مراسيم الزيارة يقوم معظم الزوار بتوديع المدينة وصاحب المرقد الطاهر فيها بدعاء خاص عندما يهمون بمغادرة الضريح، ومن ثم المدينة بعد إكمالهم كافة مراسي الزيارة، والتي مرت بسلام تام، بعد أن قام أكثر من 25000 عنصر من عناصر الجيش الشرطة والأمن بتأمين حماية زوار المدينة المقدسة. ■